



لا يخفى على أحد أن مؤسس نظرية الفوضى الخلاقة ميكافيلي صاحب كتاب "الأمير" حيث جاء فيه "الشجاعة تُنتج السلم، والسلم يُنتج الراحة، والراحة يتبعها فوضى، والفوضى تؤدي إلى الخراب، ومن الفوضى ينشأ النظام، والنظام يقود إلى الشجاعة" ولا ننسى كوندليزا رايس استخدمت هذا المصطلح للتدليل على منهجية سياسة الخارجية الأمريكية في التعامل مع منطقة الشرق الأوسط كمنطقة شديدة الأهمية بالنسبة للولايات المتحدة، كي تحقق أهدافها في ضمان تدفق النفط وضمان أمن الكيان الصهيوني والحرب على الإرهاب.

لقد حاول الكثير من المحللين أن يربطوا ما يحدث في العالم العربي من تحولات جذرية بأنها نتاج الفوضى الخلاقة التي تنتهجها الولايات المتحدة في إطار سعيها للهيمنة على العالم.

طبعاً لا اتفق مع هذا التحليل لأنه بكل بساطة يلغي إرادة الشعوب العربية في التغيير والتطلع للحرية والكرامة والحياء الأفضل ، ولا أنكر سعي مختلف الدول الفاعلة على الساحة الدولية ركوب موجة الربيع العربي ومحاولة الاستفادة من مفاعيله وتحويلها لصالح تلك الدول ، وهذه هي السياسة بطبيعة الحال.

إن ما يحدث في سوريا الآن ممكن أن نصفه بمصطلح الفوضى الخلاقة وذلك لأن جميع الأوراق قد اختلطت ولا يوجد لاعب أساسي يحرك الأحجار لدرجة أن الأمور بدأت تفلت من أيدي اللاعبين الكبار (روسيا وأمريكا) وحتى المتفرجين بات يصيبهم نوع من الشك وعدم اليقين، بل يمكن القول حالة من الفزع مما يمكن أن تؤول إليه الأمور، ولم يعد من الممكن التحكم بشروط اللعبة ولا توجيه مسارها وأصبحت كلمة فوضى أقل ما يمكن أن يقال عن الوضع السوري المتأزم.

والسؤال المطروح هنا كيف يمكن لهذه الفوضى أن تكون خلاقة وكيف يستطيع الشعب السوري تحويلها لصالحه؟

إن كل متابع لهذا الشعب العظيم المبدع سيكتشف أن هذا الشعب ماضٍ في ثورته حتى النهاية، رغم كل الأسى والألم والتضحيات الجسيمة ، ورغم كل ما تعيشه سوريا اليوم من حالة فوضى كارثية، تجد أن هذا الشعب الثائر يحول هذه الفوضى إلى إبداع متجدد رغم قلة الموارد.

الجميع يعمل بأقصى طاقته كي يحافظ على نقاء ونبيل هذه الثورة المباركة، فتجد أبطال الجيش الحر يطلقون ميثاق الشرف العسكري الثوري، وترى الناشطين يتحركون من أجل الحفاظ على جذوة الثورة متقدمة لتكون منارة يهتدى بها، وترى نخب المجتمع المدني يبثون رسائل التوعية الوطنية، وليس بعيداً عنهم ناشطي الإغاثة والمجتمع الأهلي يعملون بما يتوفر لديهم من موارد على شحنتها وندرتهما ولكنهم يبدعون في طريقة التعاطي مع هذا الوضع الصعب.

ولا ننسى المثقفين والكتاب والشعراء والفنانين الثوريين وناشطي الشبكة العنكبوتية ودورهم المهم في الدعم والنشر والحض على الفعل الإيجابي الخلاق رغم كل ما تمر به سوريا من فوضى، حتى باتت هذه الفوضى هي المحرض للإبداع لدى هؤلاء.

إن ما يحدث في سوريا هو فوضى ولكنها خلاقية، ومن بات يمسك بزمام الأمور فيها ليس المجتمع الدولي بل الشعب السوري التائر بكافة فئاته هو من يقود المبادرة وسيخرج منتصراً فارضاً أجدته الوطنية على جميع القوى التي تحاول التلاعب بمقدراته وبمصيره.

عاشت سوريا حرة أبية

المصادر: